أثر التواصليَّة في إبلاغ القضايا الإصلاحيَّة عند البشير الإبراهيميِّ

The effect of communication in communicating reform issues according to Al-Bashir Al-Ibrahimi

الطاهر بلقايد[1]، الزهرة سعد الله[2]

[1] جامعة أحمد بن بلة وهران1 (الجزائر)، belgaid.tahir2205@gmail.com

[2]جامعة أحمد بن بلة وهران1 (الجزائر)، saadallah.zahra@univ-oran1.dz

مختبر اللسانيّات والخطاب

تاريخ الاستلام: 2023-11-27 تاريخ القبول: 2023-12-07 تاريخ النشر:2024-06-01

مُلخّص البحث

للشيخِ البشير الإبراهيميِّ طرائق تواصليَّة خاصة تُخوِّلهُ استهدافَ كلَّ شرائِح المجتمعِ الجزائريِّ، وهذا بُغيةَ تحسيسِها بالخطرِ الدَّاهمِ عليها والآتي من برامج المستعمر الفكريَّة والثقافيَّة والتي تستهدف سلخهُ وتطويعهُ وهذا حتَّى يتنازلَ عن مشروعيةِ الحريَّةِ، والمطالبةِ بالاستقلالِ التام عن فرنسَا، وقد ارتأينا أن نسم مركزيَّة بحثِنا بالتواصليَّة وهذا نظيرَ نَجاعةِ هذهِ الآليةِ في ترصيصِ المجتمعِ الجزائريِّ وتغذيتِهِ بالأطروحاتِ الإصلاحيَّة التي تتعلق بالأسرةِ والدين، والفكرِ والتَّعليمِ، فقد نالَ البشيرُ الإبراهيميِّ ناصيَةَ اللغة ومنازلَ البلاغةِ المثمرةَ، ومقاصدِ الخطابِ التواصليِّ وأسلوبِهِ التأثيريِّ التواصليِّ مَا مكَّنَهُ من تأسيسِ اتجاه إصلاحيِّ في غايةِ التنظيمِ.

كلمات مفتاحية: الإصلاح، التواصليّة، البشير الإبراهيمي، التأثير، مقاصِد الخطاب.

Abstract:

Sheikh Bashir Ibrahimi has special methods of communication that allow him to target all segments of Algerian society, in order to make them aware of the imminent danger to them coming from the intellectual and cultural programs of the colonizer, which aim to dismantle and subjugate him, and this is so that he gives up the legitimacy of freedom, and the demand for complete independence from France, and he decided We call the centrality of our research communication and this In view of the effectiveness of this mechanism in strengthening Algerian society and nourishing it with reformist theses related to the family, religion, thought and education, Al-Bashir Al-Ibrahimi gained the mastery of language, the fruitful centers of rhetoric, the objectives of communicative discourse, and his

communicative influence style, which enabled him to establish a reformist trend with the utmost aim organization.
Keywords: Reform; communication; Bashir Brahimi; influence; objectives of discourse.

1. مقدمة:

لا شكَّ أنَّ المتأمِّل في آثَارِ الشَّيخِ البشير الإبراهيمي سيكاشِفُ بعمقٍ مهارته الإنشائيَّةِ في الصَّوغ البلاغيِّ والابتكار الفنّي الذي يعكسُ حسَّه الإصلاحيِّ في شكل طبقات تواصليّة تبتغي إقامة حواريّة مُتصاعِدة من نواة الأسرة إلى نواة المجتمع، إلى نوعية كلّ الجمعيّات والأحزاب النيابيّة والثقافيّة الفاعِلة، وهذا لإرغامِها على إبدال تيّارها التّغريبي والعودة إلى صفّ الأصالة والدّفاع عن مقوّمات الشّعب الجزائري التي حاول المستدمِر ابتلاعها، كي لا يغتدي هذا المجتمع شريدًا في فلوات الجهل والضَّلال.

2. التَواصليَّة الأسريّةِ نحوَ ترشيدِ أخلاقيٍّ دينيٍّ لنواةِ المجتمعِ.

لا شكّ أنّ إتقان البشير الإبراهيمي للخطابة جعلهُ يقيمُ للمتلقيِّ وزنًا عظيمًا والمتمثِّل بالطبعِ في الفرد أو المواطن الجزائري وتتجلَّى هذهِ المنزلةِ في إرساء الشيخِ لجملةٍ من المواعظ الدينيّة والأخلاقيّة وهذَا لحثِّه على استتباع مَساره الحياتي في ظلِّ مناخ يكتنِفه الإسلام بعيدًا عن الطُّرق والمذاهبِ الغربيَّة المضادّة التي تَرمي إلى تحطيم كيانه الأسري، وهذا كَي يغتدي بلا مأوى فيسهُل عليه التحلُّل والتفسّخ والوقوعِ في الملذَاتِ التي تضعها فرنسَا لاستِدراجَهُ ويصبحَ كائنًا بَهيميًّا تعصِف به رياح الشَّهوة وهذا ما نرقُبُهُ في قولهِ الآتيِّ:

"وأمّا أولئك الذين أركسوا في الدّرك الأسفلِ من الحيوانيّة فانطلقوا من الشّهوات واستمرأُوا التحلُّل من قيود الدّين والعقل ورأوا أنّ الزّواج قيدٌ لحريّتهم البَهيميّة، فتحالفوا مع الشّيطان على بثّ حاله فأولئك قومٌ مجرِمون"[1]

ترمي السِّلسِلةُ التواصليَّة المدعومة باسم الإشارة "أولئك" إلى زَجر الشّباب الذين أطبق عليهم العَمى فانساقوا لإرضاء أهوائهم الشّهوانيّة، ذلك أنّ تعفّفهم عن الزّواج وابتغاءهم لحياة الحريّة، جعلَهُم يسلكون مذهبَ الاستعمار ويروجون دونَ قصدٍ أفكارهِ الهدَّامةِ الأمرُ الذي ساعد السلطاتِ للمُزايَدة في سياستِهَا الإغوائيّة عبر بناء دور الخنا والعَربَدة، وهذا لتحطيم المؤسّسة الأسريّة

التي رعاها الإسلام بمَزيد من القداسة، ولا يفتأ الشيخُ البشير الإبراهيمي في استدعاء حشد من الرّوادع البلاغيّة وهذا لترهيبِ الشَّباب وثَنيِهم عن الاستغراق في التحالف مَعَ الشّيطان، فالإيمان المفضي للنَّصر الإلهي على كيان الاستعمار مقرون بتأسيس أسرة بمُواصفات شرعيَّة.

ولا يتوانى البشير الإبراهيمي في ذمِّ تلكَ العادات الاجتماعيّة القبيحة التي أَدَّت إلى انحرافِ الشبابِ كالمغلاةِ في المهورِ ، والتّباهي بالبَهرجة الدنيويّة من حليٍّ مسبوكة، وأطبخة كثيرة تُذهِب بالجيوب والعقول، "ولكنّنا عسّرنا اليسير، "وحكَّمنا العوائد والعجائز القواعد في مسألة خطيرة كهذه، "فأصبح الزّواج الذي جعله الله مَسكَنًا وأُلفةً ورحمة سبيلًا للقلق والبلاء والشّقاء، وأصبح اللّقاء الذي جعله الله عِمارة بيت وبناء أسرة خرابًا لبيتين بِما فرضته العوائد من مُغالاة في المهور، وتفنّنٍ في النّفقات والمغارِم"[2]

تتّضح في عمق الرّسالة مُجانسة صوتيّة "حكَّمنا العوائد – والعجائز القواعد" لقد أظهر الحرف الدالّ بمدِّهِ الجهوري وذبذباتِه الانفعاليّة المتصاعدةَ ، سخط الشّيخ على قيمتين تحكيميتين تدخُلان في تقرير بناء الأسر وتكوين العلاقات الزوجيّة، وهي العادات الموروثة، وأحكام العجائز المعدومة من فقهها العقلانيِّ ووصاياها الإسلاميّة، لتنعكِس بذلك الآية الربانيّة الدّامغة التي أُحِلّ من وراءها الزَّواج"[3]؛ حيث يتحوَّل الزّواج من فريضتهِ الساميَّة المقدَّسة كالتوافُق الرُّوحيِّ بين الزَّوجين إلى بيتٍ خربٍ يستوطِن الشّيطان زواياه بسبب الغلاء في المهور، والإسراف في النّفقات والمغارِم، لذلك لا ريب إن كانت نهاية هذا الحفل الفاحش طلاق بائن، وصراع بين عائلتيِّ الزَّوجين.

لعلّ اهتمام الشّيخ بقضايا الأسرة من خلالِ مُجابهة الآفات والعَوارِض التي تهدّد بقاءها هو إيمانه بأنّ صلاح الأمّة من صلاح الذريّة وصلاح الذريّة من صلاح الأسرة وصلاح الأسرة من صلاح تلك العلاقة المقدَّسة بين الزَّوجين.

"أيّها المسلِمون: إنّه لا أشقى من ابن المطلَّقة، وإنّ أباه يُشقيه أوّلًا، ويشقي به أخيرًا، فإذا ربِي في حضن أمّه المطلَّقة شقِي ببُعدِه عن أبيه، وشقِي أبوه بِما تغرسه أمّه في نفسه من بُغض له وحِقد عليه"[4].

لقد أضفى الشّيخ على مُرسَلته عديد التّوابل اللغويّة استدراجًا للمُتلقّي وفوزًا باهتمامه كاستهلاله بمقطَع لغوي يوحي بالنّداء، توكيدًا منه لرأي يريدُ البوح برسالتهِ الإبلاغيّة وهو الاضطراب

العاطفي الذي يُعاني منه الطّفل غَداة انفصال والديه، فالشّقاء كلّ الشّقاء لو تكفّل أحد الطّرفين بتربيته وتهيئته دون الآخر، ولذلك يُنكِر الشّيخ على الفقهاء تمنّعَهم وتساهُلَهم إزاء هذه المسائل. إذ لا يجدون حرَجًا في إبداء الفتاوى السامّة التي تَنصُّ على التَّفكيك والتهديمِ دونَما التواصيِّ بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله التي في هذا الشأن، فالتربية الصّالحة مَقرونة بالتكاتف الزَّوجي لا بالتفارق والتّدابُر، ذلك أنّ المجتمع هو من سيطاله هذا التأثُّر فَلو تساهل الفقهاء في تسويغ الطّلاق وإباحة شروطه بدَعوى أنّ أبغض الحلال عند الله الطَّلاق، فسيحدثُ انفجار أخلاقيٌّ رهيب تعودُ ويلاتُه على المجتمع.

3. التواصليَّة التربويَّة وهدف إنشاء المدرسَة الجزائريَّة المحافِظة.

التّعليم مَطلب حضاريٌّ لا غِنى عنه لإرساء ملامِح مجتمع مثاليٍّ تسودُه قِيم الفضِيلة والعُمران، وهو الثَّغر الذي أجمع علماء الأمّة على وُجوب الرِّباط عليهِ مخافةَ أن تتسلَّل عبره رياح التغريب وسُموم التّمييع والتّلفيق من طرَف المستعمِر، فينحلّ المجتمع وتتقوّض بذلكَ أركانهِ.

وقد راهَنَ الشّيخ على تعرِية أساليب فرنسا الخبيثَةِ في تمييعِ التَّعليم المحلّي بواسطة نسَق من الآراء والمعارِف المنحلَّةَ التي تَندَسُّ في الكُتبِ والصّحائف كما يَندَسّ السمُّ الزُّعاف في العسل، ومن ثَمَّ فإنّ المداومة على تَعاطي تلك التّعاليم المزورة يؤدِّي إلى نشوء جيل خاضع تقوده رياح الاستعمار، فيستغني بذلك عن قضاياه القوميّة والأدبيّة فيكون للانسِلاخ أقرب، وللإدماج أفرح، وهكذا تذوبُ الروح الوطنيَّة بخصالِها القومية والدينيَّة في معينِ الحداثةِ الزائفةِ.

ومهما يكنْ نجاحُ الاستعمار في هذا الباب فما هو بالنجاح الذي يشرّفُ فرنسا، أو يمجد تاريخها، بعد أن أبقى جروحًا دامية في نفوس المسلمين، وبعد أن كان من نتائجه هذا الجو المتغير الذي يتمنى له كل عاقل الصفاءَ والإشراق، وهذه الحالةَ المحزنة التي يودُّ كل منصف أن تزولَ، وأن يخلفها طور سرور واطمئنان[5]

لم يَقتنِع الشيخ من خلالِ المقطع الذي استعرضناهُ آنِفًا مِن جَدوى الإصلاحات الفرنسيّة الخبيثة التي كانت تصبُو إلى طَمس هويّة الشّعب الجزائري ضِمن آليَّات فكريَّة مُخاتِلة ، تَتضمّن تلفيق الحقائق التَّاريخيَّة، وتشويه اللّغة الأم، عَدا عن زرع أفكار مُهجَّنة في أنفس الصِّبية لجعلهم أهدافًا سَهلة بالمستقبلِ حيثُ وتحتَ طائلةِ هذا التعليم المنغرسِ في أنفسِهم الضعيفةِ، سيتهافتون على تمجيدِ

فرنسا معتقدينَ أنَّها الأم التي أغدقت عليهم خيراتِها وهذا ولاشك من التداعياتِ المستقبليَّةِ الخطيرةِ على هذا الجيل، لو سكتَ المصلحون عمَّا يحدثُ في ورشاتِ التعليمِ الخطيرةِ التي تُقيمُها فرنسا لبثِّ سُمومِهَا.

لعلّ من المناهجِ الدّفاعيّة التي لاذت إليها جمعيّة العلماء المسلمين في سبيل ثَني الاستعمار عن مواصلة سياسة التّعليم الرّامِية إلى تغيير نَمَط المجتمع الجزائري هو العمل على تنمية اللّغة العربيّة بتأسيس مدارسَ خاصّة والحِفاظ على الكَتاتيب من الانهيار، لكونها ما زالت تعتمِد على مَنهج رسوخي في تعليم العربيّة وعلومها، فبالرّغم من إمكانيّاتها البسيطة إلّا أنّها جعلت من تعليم العربيّة فريضة إلزاميّة: "اللّغة العربيّة هي لغة الإسلام ومِن ثَمَّ فهي لغة المسلِمين الدينيّة الرسميّة، ولهذه اللّغة على الأمّة الجزائريّة حقّان أكيدان، كلٌّ منهما يقتضي وُجوب تعلُّمِها فكيف إذا اجتمَعا؛ حقّ من حيث إنّها لغة دين الأمّة بحُكم أنّ الأمّة مُسلِمة، وحقّ من حيث إنّها لغة جنسِها بحُكم أنّ الأمّة العربيّة جِنس، ففي المحافَظة عليها مُحافظة على جنسيّة ودين معًا"[6].

تتبطّن المرسَلة على غايتين تُحقّقهما العربيّة، ولو سعَينا إلى صونِها والتّرويج لأساليبها ومُعجَمِها وتراكيبِها لَحافَظنا على هويّة هذا الشَّعب وهذا من خِلالِ إدراجها ضِمن سياق الأمّة القوميّة المتماسِكة، كذلِكَ لو قدَّسنا مَحمولها القرآني وبسطنا موردِها البلاغيِّ النّبوي في فضاء المدرسةِ والزاويةِ، لجنَّبنا هذه الأمّة مخاطِرَ الانحراف ومذمّة التخلُّف لأنّها ستساق ضِمن رَكب إسلامي مُتوازِن لا تُرهبه أخطار التّغريب الآتية من وراء البِحار، وبذلك تقدِّم اللّغة خِدمتين تواصليتين ؛ تواصل هوياتيٍّ بالانضِمام إلى مِشكاة القومية وتواصل ديني يرفع المتعلِّم نحو مَدارج روحانيّة بليغةَ الأهميَّة، ولذلك لا خيرَ في مَنظومة تعليميّة تخلُو من اللّغة الأمّ، لكونِ العربيَّة تدرُّ على التّلميذ منافِعَ جمّة لا تستطيع لغة المستعمِر أن تعوِّضها.

سعى البشير الإبراهيمي إلى تدوين خِطاب إعلامي يُنكِر فيه استبداد الحكومة التي استولَت على مقرّرات التّعليم، فراحت تُحوِّر برامِجهُ أنّى شاءت وتفتعلَ فيهِ الأساليبِ التي تجعلُ التلميذُ يعيشُ قُصَامًا نفسيًّا ولغويًّا، بل وتتعمَّدُ إهانةَ كلِّ القرارات المعارِضة التي آثرَت الاحتجاجَ عوضَ السُّكوتِ.

"إنّ جمعيّة العلماء باسم الأمّة الجزائريّة المسلِمة عُمومًا تُطالِب الحكومة الجزائرية الاستعمارية في إلحاح بإلغاء جميع القرارات القديمة من طرَف واحد، بل يكون للأمّة رأي فيه ولجمعيّة العلماء اشتراك في وضعه، ويكون واضح الدّلالة بين المقاصِد صريح المعاني لا إبهامَ فيه ولا غُموض[7]."

يَهيب الشّيخ بكافّة أطياف الشّعب الجزائري للالتفاف حول مشروع تعليمي واضح يُشرك فيه كلُّ الأقطاب السياسيّة والثقافيّة الفاعِلة كجمعيّة العلماء المسلِمين التي "ما فتِئت تُطالِب بتعليم مائز وبأدوات حضارية وفلسفيّة رائدة، تكون الغاية التواصليّة محوره الأساسيِّ"[8]، حيث تناهض من أجل صَقل شخصيّة وطنيّة بأبعاد قوميّة ودينيّة، وهو مَا يتجلَّى عبرَ الثّالوث الذي اقترحه الشّيخ.

1) تعليم واضح الدِّلالة: أي صريح المادّة، قويم الأداء، لا يحتوي على حشو أو خطل، يَسيرٌ على التلقّي، يُزاوج بين الأصالة وفَهم الواقع.

2) بيِّن المقاصد: أي أنّه تعليم يشتغل في إطار مبادئ الأمّة وهويّتها: العروبة والإسلام، فلا يزيغ عن تلك الاتّجاهات ولا يوارب عن تلك المبادئ.

3) صريح المعانيِّ: أي واضح المعالم، خطابه مباشر بلا لفّ أو دوران، مع اعتماد اللّغة العربيّة لسانًا تربويًّا وتعليميًّا، وهذا لإرغامِ فرنسا على إلغاء الفروق العنصريّة في المدرسة، حيث خصّصت شقًّا للمُستعمِرين والمستوطِنين وآخر للجزائريّين مع إجباريّة اللّغة الفرنسيّة لكلِّ الأجانب.

4. البرمجةُ التَّعليميَّة التواصليَّة وأثرها في تبليغ إصلاحاتِ الشَّيخ.

وقد كشفت دراسات فرنسيّة أنّ سرّ نجاح الجمعيّة يعود إلى استراتيجيّاتها الحَكيمة في النّشاط التّعليمي واتّجاهها المبتكَر في تأهيل طاقات اللغة وجعلها طيِّعةً بين طلّاب المعاهد والمدارس، ولعلّ أهمّ الخطوات التي عزّزت هذا المشهد ما يلي:

1- إصلاح اللّغة التي أصبحت هجينًا من العامية والبربريّة واللاتينية، فكان عمل العلماء متقونًا في ورشات بحثيّة سعَت إلى إعادة اللّغة إلى نقائها الأصلي.

2- إعادة اكتشاف التراث الجزائريّ ونشر الآداب والفنون والعلوم التي طَمستها رياح التّجهيل على مرّ العصور.

3- تعزيز المقاييس الكبرى في المعاهد والجامعات والمدارس كإعجازِ القرآن، والفلسفة الإسلاميّة، والنحو العربي والتاريخ الإسلامي.

4- اعتناءُ الجمعيّة بالمقالات العمودية التي تنشر أسبوعيًّا فقرات أدبيّة وفنيّة وعلميّة.

ما أرعب الكيان الفرنسيِّ هو وجود برامج تأهيلية مُنتقاة من لدُن أخصائيّين بارعين، حيث تتمحوَر مهامّهم في بناء شخصيّة الغد التي تستأهل للانفصام عن الحضارة الغربيّة.

وهذا ما يلهج به الشّيخ: "يا أبنائي إنّ الزّمن قد وضعكم وضعًا صيّرَكُم جديرين بأن تطلبوا العلم لوجه الله، ولوجه العلم، لا لوجه الوظائف ولا للشّهادات"[9]

ينحُو أسلوب النّداء لتَمتين عُروة التّواصل بين أعضاء جمعيّة العلماء المسلمين وشباب الجزائر، وهذا لانتشالهم من مستنقع فرنسا الكدِر عبر إرشادهم للعلم القويم الذي يكفل النّهضة لا التخلُّف، الرّقي والتطوّر لا الهُتاف والتّصفيق والتّفاخُر.

وما استرعى المخاوِف وجعل المستعمِر يراقب عمل الجمعيّة وأداءها السّنوي في مجال التربية والتعليم هو الحسّ الوطني الذي بات يتفاقم رُويدًا رُويدًا في أوساط الطّلبة خاصّة في المناسبات الوطنيّة، حيث يقوم الطّلبة بإلقاء الأناشيد الحماسيّة والخطبِ الحماسيَّة ممّا شجَّع الحضور على التبرّع لهذه المدارس لأنها فخرُ الجزائرِ المستقلَّة يومًا ما، الأمر الذي أدخل الرُّعب في صفوف الموالين للغرب الاستعماري، إذ لم يجدوا حلًّا سوى نَعت الجمعيّة بالرّجعيّة وتغرير الشّباب للانضمام لهذا الفيلق الضلالي الذي ينشر القدامة عِوض الحَداثة، والتزمّت عِوض الانشراح والانفتاح.

5. خاتِمة:

تأسيسًا على ما سبق يمكنُ استخلاصُ مجموعةٍ من القضايا الجوهريَّة في آثار الشيخ البشير الإبراهيميِّ:

1- التواصليَّة تقومُ علَى توظيفِ أسلوبٍ لغويٍّ جذاب بمؤهلاتِ بلاغيَّة تستهدف استمالةَ المتلقيِّ للتفاعُلِ مع القضايا الفكريَّة والسياسيَّة المستجدة على السَاحةِ.

2- استطاعَت كتاباتُ الشيخَ أن تبلغَ الآفاق العربيَّة بفضلِ اعتِمادِهَا على التواصل السلس مع القارئ العربيِّ عبر تدعيمِ الخِطابِ بالشواهدِ والحجج التي تفنِّدُ أدعياءَ الاستعمارِ.

3- علَى النُّقادِ المعاصرينِ الترويجِ لأفكار الشَّيخ وتشريحِ أنساقِها الأسلوبيَّة والثقافيَّة لتزويدِ الطالبِ بكفاءةِ الإنشاءِ وقوَّةِ الحجاجِ، وبراعةِ التواصلِ الذي تفتقِدهُ الكتاباتُ العربية على كثرتِهَا.

6. قائمة المراجع:

1. عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، الشركة الوطنيَّة للنشر، الجزائر، ط2، 1983
2. صَالح الدِّين ملفوف، تقويم الإنسانُ في مقالات الشيخ الإبراهيميِّ، مجلة أبحاث في اللغة والأدب العربيِّ، جامعة بسكرة، العدد:14
3. مازن صلاح، جمعية العلماء المسلمين ودورها في الحركة الوطنيَّة الجزائريّة، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية التاريخ، جامعة الملك عبد العزيز، السنة الجامعيَّة: 1985 / 1986
4. البشير الإبراهيميِّ، الآثار، مج :3 دار الغربِ الإسلاميِّ، بيروت، ط1 ،1997

7. الهوامش:

[1] البشير الإبراهيميِّ، الآثار، مج:3 دار الغربِ الإسلاميِّ، بيروت، ط1 ،1997ص294.

[2] المصدر نفسه، مج: 1، ص295-296.

[3] يُنظر: صَالح الدِّين ملفوف، تقويم الإنسانُ في مقالات الشيخ الإبراهيميِّ، مجلة أبحاث في اللغة والأدب العربيِّ، جامعة بسكرة، العدد:14
2018، ص120.

[4]البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، مج:3ص299.

[5]المصدر نفسه، مج3، ص46.

[6]المصدر نفسهُ مج: 3 ص253.

[7]المصدر نفسه، مج: 3، ص49.

[8]ينظر: عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، الشركة الوطنيَّة للنشر، الجزائر، ط2 ،1983،ص129.

[9]البشير الإبراهيميِّ، المصدر السابق مج:3، ص253.